قراءة في كتاب "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار"، للدكتور مختار بن قويدر.

أ. محمد بن ساعو جامعة سطيف2

الملخص

تنخرط هذه المحاورة لكتاب "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار" لمؤلفه الدكتور مختار بن قويدر، في إطار درس المنتج الأكاديمي الذي يتبنّى تاريخ الجزائر موضوعا له، بمختلف المقاربات والمناهج، ففي ضل وضع يتّسم بقلة الإصدارات التاريخية يصطدم المهتمون بنوع من غياب ثقافة تثمين الأعمال العلمية والتعريف بها، ونقدها نقدا موضوعيا، لأجل ذلك حاولنا التطرق لهذا الكتاب لما يحوزه من أهمية في ميدانه، خاصة وأنه تناول ثلاثية كان لها الأثر البارز في تاريخ الجزائر: التنصير – الاستشراق – الاستعمار.

في بداية مقالنا، عرّفنا بصاحب الكتاب الدكتور مختار بن قويدر وأشرنا إلى أعماله السابقة والمناصب التي تقلّدها، ثم أعطينا لمحة عامة عن الجوانب الفنية والموضوعية للكتاب مع التركيز على الإشكالية التي يتناولها، لننتقل بعدها إلى المحتوى الذي أفردنا له حيّزا مهما، عرضنا من خلاله أهم الأفكار التي وردت فيه، مع القيام بقراءة نقدية في مضمونه ومنهجه.

أولا: التعريف بالكتاب:

تحاول هذه القراءة الالتفات إلى كتاب يتناول موضوعا تاريخيا، لكنه في الآن ذاته راهني بامتياز. الكتاب بعنوان: "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار" للدكتور مختار بن قويدر، تكفّلت بنشره دار الكشاف ببيروت –لبنان، وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1434هـ/2013م، وهي تقع في 164 صفحة من القطع الصغير.

أول ما تقع عليه عين القارئ وهو يتصفّح كتاب "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار" هو الغلاف؛ وإن كانت جل عروض الكتب لا تلتفت إلى تحليل الدلالات التي تشير إليها واجهة الكتاب، إلا أنه وفي اعتقادنا فإن القراءة البصرية للغلاف جزء من قراءة المضمون، ورغم أننا لن نغوص في هذا النوع من القراءات البصرية، إلا أننا ندرك من نظرة أولية أن غلاف الطبعة المعتمدة من الكتاب ذو حمولة مشحونة بالدلالات والمؤشرات. وكتوصيف لواجهته الأمامية فقد جاءت مقسمة إلى جزئين: الجزء العلوي بخلفية خضراء عليها عنوان الكتاب باللون الأحمر، والجزء السفلي من الواجهة بالأبيض والأسود، اشتمل صورة لفرسان الحملات الصليبية في وضع هجوم، وتعلوها صور لبعض الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر المعاصرة: كالأمير عبد القادر الجزائري (1808- 1882م)، والحاج أحمد باي (1786-1851). أما الواجهة الخلفية فتضمنت مقتطفات من مقدمة الكتاب.

وإلى جانب تعبيرات الصورة، أشارت الألوان الموظفة في الغلاف للعلم الوطني الجزائري (الأحمر، الأخضر، الأبيض)، أما الأبيض والأسود فهما إشارة إلى الجذور التاريخية للظواهر المدروسة في الكتاب (الاستشراق، التنصير، الاستعمار) وامتداداتها الراهنية. وعليه فاللون –في هذا الغلاف- عبّر على جانب مهم من محتوى الكتاب، فكان وظيفيا إلى أبعد الحدود.

ثانيا: التعريف بالكاتب:

كان التاريخ على مدى الزمن ولا يزال، مجالا بحثيا يستقطب أقلاما تتنوع اهتماماتها وتختلف مناهجها ومدارسها، ولنا في كتب التاريخ القديم منها والحديث نماذج بارزة اختص أصحابها في صنوف معينة من العلوم، لكن التاريخ كان حاضرا في إنتاجهما. الدكتور "مختار بن قويدر" أحد الأسماء الأكاديمية في مجال الأدب العربي، أستاذ محاضر بكلية الآداب واللغات جامعة معسكر غرب الجزائر، من الباحثين الذين اختاروا الخوض في الكتابة التاريخية بعد أن كانت له تجربة في تأليف مجموعة من الكتب:

* السبئية وأثرها في التاريخ الإسلامي، دار الأديب-وهران (2007).

* التراث العربي الإسلامي على أيام المماليك والعثمانيين (دراسة لعصر الموسوعات)، دار الرشاد –بلعباس (2009).

* فتيان حول الرسول-صلى الله عليه وسلم- (عمل مشترك)، دار الرشاد –بلعباس (2010).

* إنجيل برنابا والبشارة بالرسول محمد –صلى الله عليه وسلم-، دار الرشاد – بلعباس (2011).

تقلّد الباحث "مختار بن قويدر" العديد من المهام البيداغوجية والإدارية على مستوى جامعة معسكر، حيث ترأس دائرة الحقوق (2002) وقسم اللغة العربية وآدابها بين (2006-2003)، كما عُيّنَ مديرا للدراسات بمعهد الآداب واللغات وعضوا بالمجلس العلمي للمعهد (2008-2006)، ليشغل منصب رئيس المجلس العلمي لكلية الآداب واللغات منذ (مارس 2013). وبالموازاة مع هذه المهام فهو مكلف بتأطير طلبة الليسانس والماستر في مقياسي: "تحليل الخطاب الأدبي" و "الأدب العربي والاستشراق". وأسهم في مناقشة طلبة الدكتوراه داخل وخارج الوطن (جامعة اليرموك بإربد، الأردن 2007)، فضلا عن مشاركته في عدة تربصات في مختلف الجامعات العربية (مصر: جامعة القاهرة: كلية دار العلوم / الأردن: جامعة إربد / سوريا: جامعة دمشق: كلية الآداب واللغات / المملكة المغربية: جامعة وجدة، جامعة محمد الأول، جامعة الدار البيضاء، ...).

ثالثا: إشكالية الكتاب:

الأستاذ "مختار بن قويدر" المسكون بحب التاريخ، له انهمام كبير بإشكاليات تاريخية عميقة وشائكة لا يزال الكثير منها محل نقاش، وتحتاج المزيد من البحث والتقصي. وفي الكتاب الذي نحن بصدد وضع قراءة له: "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار" حاول صاحبه أن يفسّر العلاقة القائمة بين الاستعمار والتنصير والاستشراق. هذا "الثالوث" الذي سار جنبا إلى جنب كأحد أشكال فرض الهيمنة على المجتمعات العربية التي سجلت خروجا استثنائيا من دائرة الفاعلية.

وإن كان الاستعمار بمفهومه الكلاسيكي قد انهار، إلا أن بعض سياساته التي طالما رافقته لا تزال نشطة، خاصة تلك التي تتّسم بطابعها الثقافي والديني كالاستشراق والتنصير، وهي سياسات تبقى تلقي بضلالها على واقع العالم العربي والإسلامي عامة وعلى الجزائر بالخصوص في وقتنا الراهن.

وبذلك فالمنطلق الإشكالي لهذا الكتاب يحاول أن يقارب العلاقة الوثيقة التي تربط بين الثلاثي المركّب: "الاستعمار والاستشراق والتنصير"، ومدى إسهام الاستشراق والتنصير في خدمة الأجندة الاستعمارية. التي تعتبر في الأصل أحد نتاجات الدراسات الاستشراقية والأنثربولوجية السابقة للمد الاستعماري الذي زحف على العالم الاسلامي، فكانت بمثابة الإطار النظري على الأقل في بعض جوانبه.

رابعا: محتوى الكتاب:

لأن كتاب "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمّر" يشير في عنوانه الفرعي إلى "التنصير والاستشراق والاستعمار"، فقد تركزت جهود مؤلفه "مختار بن قويدر" حول مقاربة هذه المفاهيم من خلال صفحات الكتاب المائة والأربعة وستون (164) وإسقاطها على الجزائر المُستعمَرة (1962-1830). وينطلق من إدانته للاستشراق والتنصير باعتبارهما أداتين في خدمة الحركة الكولونيالية، وإحدى الأوراق الرابحة في سياسته الرامية لاجتثاث عناصر الهوية الجزائرية، تمهيدا لجعل الجزائر ميدانا جديدا للمواطنة الفرنسية، لكن بمفهوم آخر.

يرسم الباحث في بداية كتابه صورة درامية عن أوضاع الشعب الجزائري في ظل الهيمنة الكولونيالية مدعّما هذا التوصيف بالترسانة القانونية التي أصدرتها السلطات الاستعمارية بغية السيطرة على الأرض والإنسان كائنا وهوية. هذه السياسة الاستعمارية كانت تُسَوَّق من طرف بعض المستشرقين على أنها تحضير وتمدين للمجتمع الجزائري وإحياء لعصر الرومان المزدهر، لأنهم رأوا في التوسعات الإسلامية بالجزائر سبب التقهقر والاضطراب الذي عرفته البلاد في جميع الميادين الحياتية.

عاش الجزائريون تحديا حضاريا فرضته عليهم السياسة الفرنسية القائمة في بعدها الضارب للهوية على التنصير والفرنسة والقضاء على معالم الشخصية الجزائرية المغاربية الإسلامية في الإنسان الجزائري، ما جعل العلماء العاملين ينتفضون ضد هذا الاختراق من خلال تبنيهم لاستراتيجية إصلاحية ترتكز على مبادئ الأمة الجزائرية.

1/ التنصير: فرنسا اللائكية تنشر المسيحية وتسير شؤون الإسلام في الجزائر؟

يرفض المؤلف استعمال مصطلح "التبشير" مفضلا "التنصير"، للتعبير عن الحركة التي تستهدف نشر الديانة المسيحية، ويعترف أن الدين في أوروبا بوصفه معتقدا روحيا لم يعد من منطلقاتها، لكنها في المقابل لم تتخل عن عصبيتها الصليبية تجاه الإسلام. ولأن الإسلام بمنظومته العقائدية والفكرية يشكّل عقبة في وجه التوسع الاستعماري فقد عمل الفرنسيون على محاولة إضعاف تأثيره ونشر المسيحية

في أوساط الشعب الجزائري لأنها بوابة إفريقيا التي كانت فرنسا تحمل لها مشروعا ضخما لإدخالها في الدائرة المسيحية.

التنصير حسب المؤلف كان استراتيجية محسومة في أعلى هرم السلطة الفرنسية، فالملك "شارل العاشر" (1757-1836) صرّح في خطاب ملكي يوم 02 مارس 1830 قبل الحملة الفرنسية ضد الجزائر قائلا: "إن العمل الذي سأقوم به ترضية للشرف الفرنسي سيكون بعون العلي القدير لفائدة المسيحية كلها".[1] وهو ما يفسر اصطحاب الجنرال "دي بورمون" (1773-1846) قائد الحملة العسكرية لستة عشر (16) قسيسا. ورغم التوجه العام نحو التنصير، إلا أن بعض القساوسة على غرار "صموئيل مارينوس زومير" "Zweimer, S. M" (1867-1952) كانوا يرون بأن إخراج المسلمين من دينهم وتركهم بلا معتقد أولى من تنصيرهم، لأن ذلك يسهّل اقتيادهم والسيطرة عليهم.

استحق "الكاردينال لافيجري" "Le cardinale La vigirie" (1825-1892) لقب زعيم الحركة التنصيرية في الجزائر من خلال تأسيسه لجمعية الآباء البيض سنة 1868، وكانت أهم مراكز نشاطها في الجنوب الجزائري لأن الحركة التنصيرية كانت موجهة نحو الجنوب إلى عمق الساحل الإفريقي فضلا عن منطقة القبائل، وإلى جانب جهود "لافيجري" نسجل النشاط التنصيري الكبير الذي قام به الأب "شارل دي فوكو" (1858-1916).

ودعما لقراءته التاريخية حول الظاهرة بشواهد تثبت تركيز السلطات الاستعمارية بمختلف أجهزتها على تنصير الجزائريين، أورد الكاتب الظروف التي رافقت تحويل مسجد كتشاوة بالعاصمة إلى كاتدرائية، إضافة إلى تكفل الدولة رغم لائكيتها بتعيين أئمة المساجد ورجال الإفتاء وموظفي السلك الديني وإشرافها على عقد مؤتمر قسنطينة سنة 1905 الذي درس أساليب استقطاب المرأة وتحبيبها في المسيحية لما لها من تأثير قوي في المجتمع.

اعتقد الفرنسيون أن الجزائر ستكون مسيحية بعد سنوات قليلة من احتلالها، ويعبّر عن هذا التمني سكرتير الجنرال "بيجو" وبتفاؤل كبير قائلا: "آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح..."[2] غير أن المشاريع الفرنسية اصطدمت بتعلق الجزائريين بدينهم وارتباطهم بمعتقدهم، إلى جانب الجهود الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي يرأسها العلامة "عبد الحميد بن باديس" (1889-1940).

2/ الاستشراق:[3] استهداف اللغة والتاريخ والنبش في التراث

الاستشراق والتنصير حسب الكاتب سياستان تتبادلان الأدوار لخدمة الآلة الاستعمارية، فهو يُدين الاستشراق باعتباره نبشا بِنِيَّة سَيِّئَة في التراث الإسلامي من خلال جعله مُتَّهَما، حيث نصّب المستشرقون أنفسهم قضاة أو مدّعين عامين يحاولون إثبات التهمة، لا باحثين عن الحقيقة، لذلك فالاستشراق هو محاولة للنيل من مقومات الجزائريين. وإن كان الاستشراق يستند إلى دوافع دينية وتجارية وسياسية وعلمية، فإن الدافع الاستعماري كان له توجيه كبير للاستشراق الفرنسي خاصة.

جاءت محاربة اللغة العربية كترجمة لروح الفكر الاستشراقي وكخطوة أولى لمحاربة الإسلام، لأن العربية هي اللغة التي كتب بها التراث العربي الإسلامي، وبها صنفّت الكثير من الآداب ونظمت القصائد والأشعار ودوّنت المخطوطات التي تكتنزها الزوايا والبيوتات الكبرى، وفي إطار الحرب المعلنة على اللغة العربية يشير باحثنا إلى منشور 31 جويلية 1913 تحت رقم: 7 H 15 الذي وجّهه المكلف بالشؤون الأهلية بالولاية العامة "ميرانت" "Mirante" إلى الوالي العام "شارل ليطو" "Lutaud" من أجل توقيعه وتوجيهه إلى ولاة الأقاليم الثلاثة (العاصمة، قسنطينة، وهران) يطلب منهم إجراء تحقيق دقيق وعاجل حول مدى انتشار الكتاب العربي بين الجزائريين.

كخطة نوعية لتضييق الخناق على اللغة العربية يذكّر الأستاذ "مختار بن قويدر" بالقانون الذي يجعل اللغة الفرنسية إجبارية في المدارس خلال كل الأطوار التعليمية إلى جانب كونها لغة الدوائر الحكومية، مقابل إهمال اللغة العربية والتنفير منها بإثارة عبارات الاستهزاء والاستهانة بها.

لم تكن اللغة العربية المقوم الوحيد الذي طالته يد الاستعمار، فحتى المساس بالتاريخ كان هدفا لسياسته لأنه "مساس بقدسية الأمة وتمايزها وتزايلها عن الأغيار".[4] وكان الهدف من ذلك حسب مؤلف الكتاب إفراغ التاريخ من خصائصه الوطنية ومغالطة الجغرافيا، عندما اعتبر الفرنسيون البحر الأبيض المتوسط يشق الأراضي الفرنسية كما يشق السين باريس.

منذ دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر، حاول توظيف التاريخ لتبرير وجوده وسياسته المسلّطة، ففي المرحلة الممتدة بين (1962/1880) ظهرت كتابات تاريخية من طرف أساتذة جامعيين وباحثين أكاديميين وجدوا التشجيع من الإدارة الفرنسية.[5] لكن جل هذه الدراسات تميزت بالانتقائية للفترات التاريخية التي تمت معالجتها، كالتاريخ القديم وعلاقة إنسان شمال افريقيا بإنسان نياندرتال وفترة الاحتلال الروماني للجزائر، في محاولة لإبراز السياسة الرومانية فيها على أنها تمدينية،[6] تماما كما حاولت فرنسا إبراز

سياستها التدميرية. فالدراسات التاريخية الفرنسية كانت موجهة لخدمة السياسة الاستعمارية، حيث نسجل في هذه الفترة اهتماما كبيرا للمستشرقين بالتاريخ والتراث الجزائري.

تميزت هذه الكتابات في أغلبها ببعدها عن الموضوعية وخدمتها للأغراض الكولونيالية والأهداف السياسية، وإلى جانب اقتصارها على المصادر الغربية والتقارير الفرنسية وإغفال المصادر المحلية والعثمانية، فإنها لم تغط كل الفترات التاريخية. ورغم كل هذه المآخذ إلا أن الكتابات الفرنسية –مقارنة بالكثير بالكتابات الجزائرية- تتصف بغزارة مادتها وقربها إلى المنهج الحديث في كتابة التاريخ، وللاعتماد عليها يجب إخضاعها للتمحيص والنقد.

وموازاة مع البحث التاريخي نشط البحث الأركيولوجي، وأُسِّست لذلك عدة جمعيات، غير أن كل هذه الجهود ركّزت على الآثار الرومانية دون الآثار الإسلامية التي تعود للدول التي حكمت أديم المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، كما أشار الكاتب إلى الدراسات الأنثربولوجية والاجتماعية واللسانية التي أعدّها المختصون الفرنسيون وخصوا بها المجتمع الأمازيغي. حيث يؤكد أن أغلب هذه البحوث ذات خلفية كولونيالية بحتة. لكننا في المقابل نشير إلى أن بعض هذه المجهودات كان لها الأثر الإيجابي في المحافظة على جزء من تراثنا وخدمته والإسهام في الدفع بعلم الأنثروبولوجيا لاحقا.

لتقريب حقيقة الاستشراق من القارئ ارتأى الباحث أن يضعه في لب المدونة الاستشراقية من خلال استعراض بعض النصوص النموذجية لمستشرقين معروفين، أمثال: الفرنسي "إميل درمنغم" "E. Dermenghem" صاحب كتاب "حياة محمد"، ومواطنه "لويس ماسينيون" "Massignon L" (1883-1962)، و"آشيل" "Achille" و"ريجس بلاشير" "R. Blachere" (1900-1973).

عرض المؤلف جملة من المواضيع التي خاض فيها المستشرقون، منها ما تعلق بالتفسير ومنها ما ارتبط بالسيرة النبوية والمعجزات، وبالتالي فهي لا ترتبط بالسياق التاريخي لموضوع الكتاب بقدر ما ارتبطت بالتراث العربي الإسلامي، وهنا تنبغي الإشارة إلى بعض الأدوار التي قام بها المستشرقون لخدمة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، فعلى سبيل المثال لا الحصر قام المستشرق الكبير "أنطوان إسحاق سيلفستر دي ساسي" (1758-1838) الذي أوفد إلى الجزائر سنة 1835 بتطبيق طريقته لتعليم اللغة العربية وإعداد طاقم من المترجمين العسكريين،[7] كما تولى ترجمة بعض البيانات الموجهة للجزائريين عشية الاحتلال وكان يستشار في مختلف المسائل المتعلقة بالشرق في وزارة الخارجية.[8]

إلى جانب المواضيع التي تناولها الباحث الذي خاض غمار موضوع تاريخي شاق ومضن، حاول إثبات الدور التاريخي لليهود في التمكين للاستشراق، حيث اختاروا الانخراط في الحركة الاستشراقية الأوروبية بوصفهم أوروبيين لا يهود، ويفسر الكاتب هذه الاستراتيجية بحرصهم على عدم عزل أنفسهم وبالتالي التقليل من تأثيرهم.

تمكن الأستاذ "مختار بن قويدر" من رصد الكثير من المآخذ على الاستشراق باعتباره أداة استعمارية وُظّفت لتحقيق غايات مشبوهة، غير أنه لا يمكن إنكار الجهود التي بذلها بعض المستشرقين في نفض الغبار عن جواهر من تراثنا المهمل، حيث يعود لبعضهم الفضل في تحقيق مصادر قيّمة والكشف عن الكثير من المواقع الأثرية التي كان من الصعب الوصول إليها دون خبرة هؤلاء. كما أن الدراسات التي مسّت تاريخنا العربي الإسلامي تحفّزنا على وضع تاريخنا على محك النقد دون خوف من الحقائق التاريخية.

3/ الاستدمار: ممارسات لا انسانية في عصر شعارات الأخوة والحرية والمساواة

عاد المؤلف في هذا الفصل إلى عمليات التقتيل والتخريب التي قام بها الفرنسيون في الجزائر العاصمة خلال جويلية 1830، لتتوسع فيما بعد إلى المدن والمناطق المجاورة وتتنوع معها أساليب الترويع والتخويف بغية إخضاع الشعب، مذكّرا ببعض الجرائم الاستعمارية التي بقيت محفورة في تاريخ الجزائر وكلها جرائم تتنافى وتعاليم المسيح عليه السلام.

وفي كل هذه السياسة –حسب الكاتب- تهيئة لأرض الجزائر من أجل استقبال صنوف من ساكنة أوروبا وتوطينهم في أخصب الأراضي ومنحهم القروض والامتيازات لخلق طبقة أوروبية جديدة، ذلك أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان استيطانيا منذ بدايته. وازدادت حدّة التوافد الاستيطاني بعد حرب 1870 الفرنسية البروسية حيث قامت فرنسا بترحيل أعداد كبيرة من سكان الألزاس واللورين إلى الجزائر،[9] وتحفيزا لقدومهم إلى هذه الوجهة يدعوهم الكاردينال لافيجري قائلا: "أيها المسيحيون، سكان الألزاس واللورين، التائهون في هذه اللحظة بشوارع فرنسا، سويسرا وبلجيكا، أفرغوا منازلكم المحروقة، حقولكم المتلفة، فإن الجزائر، فرنسا الإفريقية، تفتح لكم أبوابها".[10]

وإلى جانب الاستيطان شكّلت التجارب النووية في الصحراء الجزائرية أحد أهم المواضيع التي استقطبت اهتمام مؤلف الكتاب، لأنها في نظره من "مخازي فرنسا المتمدنة"، فعمليات التجريب التي تمت في صحراء الجزائر -(مثل: عملية اليربوع الأزرق "Gerboise blue"، اليربوع الأبيض "Gerboise blanche"، واليربوع الأحمر "Gerboise rouge")- كانت لها آثار وخيمة على الإنسان والبيئة.

ضمن توصيفه لمآسي الإنسان والبيئة جرّاء الممارسات الاستعمارية وانطلاقا من ميوله للشعر وتخصصه في الأدب اختار الباحث "مختار بن قويدر" أن يعرض في كتابه نماذجا مما كتبه شعراء الجزائر عن هذه التجارب كالشاعر "صالح خباشة" (بابا بكير) (و1930)، و "صالح خرفي" (1999-1932)، وصاحب "إلياذة الجزائر" "مفدي زكريا" (1977-1913) الذي كتب قصيدة (وليد القنبلة الذرية) المفعمة بالحسرة والتوجع والأسى وهو يصف تضرر طفل من هذا التفجير، ولأنها تعبر بدقة عن انعكاسات التجارب النووية على الأطفال وفي قالب فني بديع، نورد بعضا مما جاء فيها:[11]

ما دهاه..؟ ويلُ أمه ما دهاه؟؟ ويلتاه، من جيله ويلتـــــــــاهُ؟؟
ما له في الحياة، يولد أعمـــــــــى؟ لم ترَ الكونَ، باسمًا مقلتـــــــــاه؟
ما له مقعدًا، يدحرجُ رجليـــــــــــــ ـهِ؟.. وما ذا جنى، فشُلَّت يداه؟
ما له، لم تزل تهدهـــــــــده الأ... مُّ، ولم تستمع لها، أذنـــــــــاه؟
ما له أخرسًا، تناجيه في المهـــــــــ د، ولم تبتسم لها، شفتـــــــــاه؟
ولماذا لم يبك، بين ذراعيـــــــــــــ ها دلالاً، ... ولم يقل: أمـــــــــاه؟
ألهذا الوجود، جاء وحيـــــــــــــداً؟ أم له في زمانه أشبـــــــــاه؟
ويلتاه من جيله ويلتاه؟

ينتقل الكاتب من تحليل وضع "الهجوم الفرنسي" على الجزائر أرضا وشعبا، إلى موضوع "الدفاع الجزائري" أو المقاومة، فيطرح سؤالا جوهريا: ما نصيب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الاستقلال؟، ليحاول من خلاله إبراز البعد التحرري الاستقلالي في التيار الإصلاحي الذي مثّلته الجمعية بفترتيها: الفترة الباديسية (1931- 1940) ثم الفترة الابراهيمية (1956-1940)، لأن هدف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جامع لكل الأهداف الإصلاحية والتربوية والوعظية والسياسية الرامية إلى تحقيق الاستقلال. ومبدأ جمعية العلماء هو العلم وغايتها هو تحرير الشعب الجزائري الذي يمرّ بمرحلتين – حسب الابراهيمي-: "تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل للثاني".[12]

المطّلع على الكتابات التي تناولت دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تهيئة أرضية الثورة التحريرية من خلال عملها الاصلاحي الذي شمل شتى الميادين ومساهمتها في الثورة عند اندلاعها يدرك الحضور الفعّال لهذا الفصيل في المسيرة التحررية للجزائر الذي يندرج نضاله ضمن الوطنية الثقافية (Nationalisme culturel) ذات البعد السياسي[13] حسب تعبير الدكتور مولود عويمر.

في نهاية الفصل الثالث من كتابه "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر"، أورد المؤلف ما اصطلح على تسميتها "الصيحات الخمس التي أطلقها الغربيون تجاه العالم الإسلامي"، وهي مواقف تبنتها شخصيات غربية بهدف إخضاع العالم الإسلامي بأقل المجهودات وأبسط الوسائل من خلال بحث نقاط قوته ومحاولة استهدافها.

كخاتمة للكتاب حاول الباحث "مختار بن قويدر" أن يفسّر ارتباط الاستشراق والتنصير بالأهداف الاستعمارية، فالاستشراق وظّف معطياته في رسم السياسات الطّامسة للهوية الجزائرية، وهو ما سعى لتنفيذه في الجانب الديني أساطين التنصير. لكن كل السياسات الاستعمارية فشلت نتيجة المقاومات الشعبية التي لم تكد تهدأ طوال التواجد الفرنسي في الجزائر إلى جانب نشاط الحركة الوطنية ورجال الإصلاح، لتختتم هذه المسيرة النضالية والبطولية بثورة تحريرية انتهت آخر فصولها باستقلال الجزائر.

خامسا: الكتاب برؤية نقدية:

رغم أن الأستاذ "مختار بن قويدر" باحث مختص في مجال الأدب والنقد، إلا أنه اكتسب شجاعة علمية تنم عن حبّه وميوله للتاريخ ليطرق موضوعا تاريخيا بامتياز، ويعمل على مقاربة مفاهيم شائكة في قاموس السياسة الاستعمارية. ونحن نقرأ كتابه القيّم نُدرك بأنه مخطوط بأنامل لغوي، لكن بعقل باحث في التاريخ يحاول الالتزام بالمنهج العلمي في كتابته لتاريخ وطنه ودفاعه عن الأفكار التي يؤمن بها.

عندما تستمع للدكتور "مختار بن قويدر" وهو ينقلك من عوالم الأدب الفسيح والشعر الفصيح إلى خبايا التاريخ، تعلم حينها سرّ ولوجه الكتابة التاريخية بما تفرضه هذه العملية من صبر وجهد ومسؤولية، لأن كتابة التاريخ هي كتابة الحقيقة. ومن يكتب التاريخ ليس متماهيا في الماضوية بقدر ما هو إنسان تقدمي على حد تعبير "إرنست رينان" (1823-1892) عندما يقول: "إن رجال التقدّم بأتم معنى الكلمة، هم أولئك الذين يُجِلُّون الماضي كثيرا".[14]

ولأن "نسيان الماضي هو خسران للمستقبل" كما كُتِبَ على جدارية متحف الميز العنصري في جوهانسبورغ، أبى الباحث "مختار بن قويدر" إلا أن يسهم في كتابة تاريخ بلده وتدوين معاناة شعبه وتخليد نضاله من أجل نيل حريته واستقلاله، ليس بكاءً على الماضي ونكباته ولا تساميا إلى فضاء التعاظم، إنما للنظر إلى المستقبل انطلاقا من تجربة تاريخية مدروسة الظروف والأسباب والنتائج.

ما يُحسب للكاتب اعتماده مكتبة بحث ثرية دعم من خلالها رؤيته وتحليله لمختلف الأحداث التاريخية والمواضيع التي تناولها، فتنوعت المصادر والمراجع المعتمدة بين الكتب التاريخية والأدبية باللغة العربية، إضافة إلى المجلات والدواوين، ومراجع أخرى باللغة الفرنسية والإنجليزية.

وهو ما انعكس على نص وهوامش الكتاب، التي جاءت ثرية بتعريف الشخصيات والمصطلحات المذكورة في المتن، وبعض الأبيات الشعرية، فضلا عن التوثيق الدقيق والإحالات، وبذلك فقد حاول الكاتب الالتزام بتقنيات البحث العلمي، ما جعل كتابه مرجعا أكاديميا يُعتدّ به في الدراسات التاريخية التي تتناول التنصير والاستشراق في الجزائر بين 1830 و1962.

وفي المقابل، فإن إبرازنا لجوانب قوة هذا الكتاب لا تعني بالضرورة أن الموضوع متفرد وغير مدروس من قبل، إنما وكما هو معروف قد تتقاطع الدراسات في الموضوع لكنها تختلف في المناهج وربما النتائج، وما يميز هذا الكتاب أنه قرن بين ثلاثي شديد الترابط وهو التنصير والاستشراق والاستعمار.

وما يؤخذ على طرح الكاتب، هو تركيزه على الجانب السلبي في الاستشراق، وعدم إشارته لأدوار بعض المستشرقين في نفض التراب على تراثنا العريق، فالكثير من المخطوطات الثمينة ما كان لها أن ترى النور وتخرج لعالم المطبوع لولا جهود بعض المستشرقين الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية النبش في تاريخنا –بغض النظر عن خلفياتهم وأهدافهم-.

وفي الأخير نقول أن كتاب الدكتور "مختار بن قويدر": "الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمّر: التنصير والاستشراق والاستعمار" يستحق القراءة لما اشتمل عليه من عمق فكري وتحليل تاريخي لسياسات ارتبطت بالتواجد الاستعماري في الجزائر. وبذلك فهو يندرج ضمن المقاربات التاريخية التي تحاول رسم صورة عن حقيقة ممارسات الاحتلال الفرنسي من مختلف الزوايا. وهو في الآن ذاته منطلق لدراسة راهن الاستشراق والتنصير في العالم العربي والاسلامي الذي تتقذافه الأمواج في ظل تشتت سياسي وتناحر طائفي وانحطاط ثقافي وتطرف ديني...

الهوامش:

[1]) مختار بن قويدر: الجزائر ومعركتها مع الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2013م، ص13.

[2]) مختار بن قويدر: المصدر نفسه، ص23.

[3]) الاستشراق لغة مشتقة من جهة شروق الشمس، وشرّق: أخذ في ناحية الشرق، والسين في كلمة الاستشراق تفيد طلب دراسة ما في الشرق. أما اصطلاحا فهو علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم؛ فالدراسات التي تعني بالعالم الشرقي تسمى الاستشراق والذين يقومون بهذه الدراسات من مؤرخين وكتّاب ... يطلق عليهم: "المستشرقون"؛ فاروق عمر فوزي: التاريخ والاستشراق الاسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1998، ص30.

[4]) مختار بن قويدر: المصدر السابق، ص75.

[5]) من أشهر هؤلاء الأساتذة: ستيفان غزال (S. Gzell)، غوتي (Gauthier)، مرسي (E. Mercier)، إميري (M. Emerit)، لوتورنو (Le Tourneau)، وجوليان (Ch. A. Julien)؛ أنظر: ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط02، 2009م، ص17.

[6]) عميراوي أحميده: من تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط02، 1425هـ/2004م، ص11.

[7]) يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين)، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، 2001، ص152.

[8]) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص49.

[9]) يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية من 1830 إلى 1954، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص39.

[10]) مختار بن قويدر: المصدر السابق، ص116.

[11]) مفدي زكريا: اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط02، 1991، ص161-162؛ مختار بين قويدر: المرجع السابق، ص129-130.

[12]) محمد بن ساعو: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية 1954-1962، دار الأمة، الجزائر، 2015، ص76.

[13]) مولود عويمر: عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص78.

[14]) نقلا عن الهادي التيمومي: المدارس التاريخية الحديثة، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط01، 2013، ص 13.